

مرقس ٨، ٣٤-٩، ١

الأحد بعد رفع الصليب

## ما أنا وما لي

"من أهلك نفسه من أجلي ومن أجل الإنجيل يخلصها"

تردد في هذا المقطع الإنجيلي الشريف، كلمة "نفس" عدّة مراتٍ. ومرةً نسمع يسوع يطلب منا أن نهلكها، وأخرى أن نخلصها. وقد نحتاج لانتباه كافٍ لنميّز فيها بين المعنيين اللذين تحملهما كلمة نفس في هذا المقطع. والربّ يسوع، يوضح هذا الفرق مستطرداً بالشرح لينقل إلى مسامعنا وصيته العميقة. والواضح أنّه في كلّ صورة من صور هذه الآيات يتكلّم الربّ عن المعنيين المتناقضين للنفس، النفس التي يجب أن نكفر بها ونهلكها والتي تستحي به، والأخرى التي يجب أن نخلصها بحمل الصليب وهي أثن من العالم كلّ ولا يوجد فدية عنها والتي تشهد بالمسيح وسيذكرها في مجد أبيه.

"النفس"، بالمعنى الأوّل الذي يقصده يسوع، والتي يطلب منا أن نهلكها تعني: "أن ندبر أنفسنا"، تعني المصلحة، الملكية الخاصة، الغنى بتجميع المال للذات، إشباع الرغبات وإباحة الشهوات وما إلى ذلك... أي أن نسعى إلى تأمين "ما لأنفسنا" ونتناسى ما ليسوع وللآخرين. وواضح أن النفس التي يطلب منا أن نخلصها هي ذاتنا وحياتنا الحقيقيّة التي ولو ملكنا العالم كلّ لها فهو لا يستحقّها. وهكذا علينا أن نميّز بين ما لنفسنا وبين أنفسنا. الفلسفات عديدة وكلّ منها يعطي تعريفاً مغايراً لمعنى الوجود. الأوّل يقول أنا أفكر إذن أنا موجود. وفلسفة عصرنا الحالي، فلسفة الاستهلاك تقول أنا أمتلك إذن أنا موجود. أملك صحة إذن فأنا موجود، لأنّ المرض شيء من العدم واللاوجود. أملك مالاً إذن أنا الجبار والموجود، لأنّ الفقر هو عدم ونسيان وأمحاء من الوجود. أملك أولاداً؟ إذن أنا أستمر بالوجود. أملك مركزاً اجتماعياً؟ فأنا موجود. إذن لأربح الوجود عليّ أن أركض وراء تأمين هذه الأساسيات.

والإنسان اليوم يحارب العدم بفيض الموجودات. ويشعر بالضمان في ضخامة الإهراءات ووفرة الصحّة والمجد. الوجود هو الحياة، وتأمين النفس يعني أن نضمن لها الوجود "بالموجودات". وهذه الفلسفة الاستهلاكيّة هي التي قالت في الإنجيل "يا نفس افرحي، لك خيرات لسنين عديدة"؛ لكن الربّ أظهرها فلسفة جاهل. الإنجيل واضح، إن "النفس" لا تتحقّق بأن نؤمن لها "ما للنفس". إن ذاتنا ليست ممتلكات، و"أنا" غير "ما لي".

"ما لي" هو ضمان حياة الإنسان الذي يسعى ليدبر ويخلص نفسه ولو على حساب "ما أنا" لديه. وهكذا يركض ليربح العالم لنفسه، لأنّه بامتلاك العالم يظنّ أنّه يؤمّن نفسه. ويبيع نفسه فدية لذلك، ويستحي بكلام الربّ، وبالإيمان في الجيل الفاسق الخاطيء ليربح لنفسه مجداً أو مركزاً، أو مالاً، أو مصلحة، ويزيد مما لنفسه.

"ما أنا" فلسفة الإنسان الذي أحبّ يسوع، وعرف أنّه هو "الابن" وليس التاجر، أنّه الوارث وليس العامل. "ما أنا" هو إيمان المسيحيّ الذي يتنكّر لأية مصلحة، أو مال "مِمّا له" أو لكلّ العالم، ليربح ذاته وذاتيته ولا يخسر هويّته في سبيل شراء ممتلكات له. إنّ الأب، على سبيل المثال، الذي يدفع ابنه مبكراً للعمل يبيعه، فقد ربح مالاً لكنّه خسر خصوصيّة "أنّه أب". الأم التي تبيع الابنة لتربح أي شيء آخر لنفسها فقد ربحت من العالم وخسرت نفسها "أنّها أم". السياسيّ الذي يشتري ويبيع على حساب المبدأ، فإنّه يربح لنفسه ولكنّه يهلكها. السفير الذي يروح في أرض الغربة يبيع ويشترى وكأنّه من أهل تلك الدنيا الأجنبيّة يبني له بناء في أرض سوف يتركها فيربح أشياء لذاته ليخسرها هي.

الإنسان بـ "ما هو" وليس بـ "ما له". ذات الإنسان غير ما لذاته. المعنى الثاني للنفس إذن هو: "ما أنا" وهذه فلسفة المسيحيّ الذي آمن بحكمة الحيّات. حكمة الحيّات كما يشرحها الذهبيّ الفم، ليست المحافظة على ما للذات. يظنّ البعض أنّ الحيّة حذرة ولا تسمح لأحد بأن يمسه أو ينال منها؛ وأنّها تدافع بسرعة عن ذاتها وتدبّر بحفّة مصلحتها. حكمة الحيّات عند فمّ الذهب تكمن في أنّ الحيّة تعرف أين هي حياتها بالذات. لذلك عندما تضربها تعطيك الجسم كلّه وتخفي رأسها. وهكذا المسيحيّ هو كتاجر حكيم يبحر بتجارته في عالم أمواجه مضطربة. حين يضطره الأمر ليحافظ على ذاته إذا ما

هاجت أمواج الحياة يرمي بجمولته كلّها في البحر لينجو هو في السفينة. ماذا ينفع الإنسان لو حمل في تجارته العالم كلّه وخسر في البحر حياته. ماذا ينتفع الإنسان لو ضمن كلّ ما لذاته وفقد ذاته. الإنجيل يُوضح تماماً، أنني موجود ليس حين أملك ولا عندما أفكر إنّما عندما أحمل الصليب وأتكرّم لِمَا لي، ولا أسعى وراء ربح عالمي إذا كان ذلك يضطّرني لأستحي بالمسيح. "أنا موجود عندما أتبع يسوع". هذه الفلسفة المسيحية الوجودية؛ إذا جاز التعبير.

"أنا من يتبع يسوع"؟ هذه هي ضمانة حياتي الوحيدة: أن أكون شاهداً له أميناً على الدوام، وسفيراً له حيثما كان، أنكر المصلحة لأنّه ليس لي فيها مصلحة، وأنكر الممتلكات لأنّها للسفر هي بمثابة أثقال. العالم لي هو دنيا للبشارة وليس للاستثمار. ضمانة حياتي هي الصليب وليس الطرق المعوجّة، وأمام هويتي "نفسي" فليس من فدية تقابلها.

نعم، إنّ من أراد أن يخلّص (نفسه) "بما لنفسه" يهلكها،  
ومن أهلك ما لنفسه (نفسه) من أجل المسيح ومن أجل الإنجيل يخلّصها.

آمين

